## الدرس الخامس/ التجربة الشعرية الجديدة ( الشعر الحر) :

إن الاتجاه إلى الشعر الجديد( **الشعر الحر**) في **الجزائر**، فقد كان استجابة طبيعية لما يحس به الشعراء من مظاهر الكبت السياسي والجمود الاجتماعي والفكري.. إنه يعبر قبل كل شيء- حسب ـ قول أبو القاسم سعدالله:( **عن تمرد أصحابه وتحررهم من المفاهيم السائدة ليس في الشعر ـ وحسب ـ ولكن في مختلف أوجه الحياة، إنه جزء من ثورة أو شكل من أشكال الثورة..**) . وحين يؤرخ الدارس لبداية الشعر الحر في الجزائر، يتضح أن البداية الحقيقية الجادة إنما بدأت في منتصف الخمسينيات من القرن العشرين، بظهور أول نص من ( الشعر الحر) في الصحافة الوطنية وهو قصيدة **" طريقي"** لأبي القاسم سعدالله، المنشورة في جريدة **" البصائر"** بتاريخ (23 مارس سنة 1955) والتي يقول فيها:

يا رفيقـــي

لا تلمني عن مروقـــي

إذا أنا اخترت طريقـــي

وطريقي كالحياة

شائك الأهداف مجهول السمات

عاصف الأرياح وحشي النضال

كل ما فيه جراحات تسيل

ويمكن حصر الدوافع التي كان لها الأثر في توجيه الحركة الشعرية الجزائرية نحو التجربة الجديدة في :

**أولا/ الدوافـع النفسيـــة:** وتعتبر انعكاسًا لما يعانيه الشاعر من واقع مؤلم، نتج عن الكبت الروحي والمادي الذي خلقه الاستعمار الفرنسي، وكانت نتيجته وأد الحريات، وقتل الرغبة في التطلع إلى الحياة الفضلى..، مما أدى بالشعور بالظلم والاستبداد والضيق الشديد.. والمعاناة الجامحة من هذا التسلط الذي نمّى في النفوس حب الانطلاق والتحرر والبحث عن قالب فني شعري جديد، يستجيب لمتطلبات الحياة ويتفاعل مع التطورات السياسية والاجتماعية والثقافية.. كما يعكس فيه ثورته وتمرده على الواقع المرير، وترجمة لنوازع داخلية تميل إلى الرفض والتمرد والثورة.. فاحتضن الشعر الجديد( **الحر**) لكونه يتلاءم وحالته **النفسية الثائرة والمتمردة**.. .

**ثانيـا/الدوافـع الاجتمـاعيـــة:** تتمثل في ما يطرأ على المجتمع من مظاهر التغيير وتبديل لأنماط الحياة ومكوناتها والبنية الاجتماعية والتكوين الحضاري والإيديولوجي.. والشاعر المبدع كغيره من أفراد المجتمع، يتأثر ويؤثر في الوسط الذي يعيشه، فإذا رأى أن الإطار الاجتماعي ومكوناته أصبح عاجزا عن مواكبة الركب الحضاري، أحس في داخله رغبة جامحة إلى التغيير، ولم يكن أمامه ليعبر عن هذا التغيير الملح إلا بالشعر، فهو أداته ووسيلته، وله حرية التصرف فيها، فيصب عليه تمرده وثورته مبدعًا ومبتكرا.. تعبيرا عن ذاتية نزعت إلى التغيير في البناء الاجتماعي المتصدع لما تقتضيه سبل الحضارة.

**ثالثـا/ انـدلاع الثـورة التحريريـــة:** ويعتبر من أهم العوامل، وبما أن الشاعر ذو حس مرهف، فإنه كان أول الناس شعورا بإرادة التغيير والتطوير والإفصاح عنهما، بما يتناسب مع التغيير الذي يهز نفسه وهو يعيش ضراوة الثورة، ولابد من الربط بين روح وشكل هذا الشعر، كما يقول(أبو القاسم سعدالله): **(..إنه بقدر ما كان متحررا من الوزن والقافية وغير ذلك من أشكال التحرر، بقدر ما كانت روحه أيضا متحررة، رافضة لوجود الاستعمار، والتخلف العقلي، والجمود الأدبي، الذي كان يجتره أدباء الجزائر المتقدمون عن الثورة المسلحة..).** إن التجارب الصادرة في السنوات الأولى لاندلاع الثورة التحريرية، تؤكد أن المضمون الثوري من العوامل النفسية التي تدفع بالشاعر إلى البحث عن قالب جديد متحرر، يتفاعل مع التطورات السياسية والاجتماعية والثقافية، رافضًا للقوالب المتوارثة المألوفة.

**رابعـا/ الـدوافـع الثقـافيـــة:** وتعتبر من أهم العوامل دفعًا إلى التحرر والتمرد على القوالب الجاهزة ولعل النموذج الشعري الوافد من المشرق العربي يجيء في مقدمة العناصر إذا ذكر العامل الثقافي. إن هذه التجارب الجديدة من الشعر الحر كانت تثير نقاشًا حادًّا ومعارك أدبية ساخنة على صفحات الصحف والمجلات أو في الندوات والأمسيات في المشرق العربي، جعلت الشعراء والنقاد والأدباء الجزائريين، يتابعون بكل اهتمام تطورات هذه الحركة، وما كان عليهم سوى احتواء هذه التجربة، وخاصة الرواد الذين اطلعوا على هذه التجارب الشعرية الحرة، والآراء النقدية حول هذه التجربة الجديدة، بحكم تواجدهم في المشرق العربي:(أبو القاسم سعدالله، وأبو القاسم خمار، ومحمد الصالح باوية)، وهم الرواد في التجربة الشعرية الجديدة .

وقد شهدت الجزائر **(جزائر الاستقلال)** في أواخر الستينيات والسبعينيات من القرن العشرين، تحولات هامة في شتى الميادين: السياسية ـ الاجتماعية ـ الاقتصادية ـ الثقافية.. وانجازات وأحداث التي تدخل في إطار الثورات الثلاث:(الصناعية ـ الزراعية ـ الثقافية). وراحت الصحف والمجلات الوطنية تفتح صدرًا واسعًا للإنتاج الأدبي والشعري للشباب وترعاه وتحتضنه. ونتيجة لهذه الظروف التي عرفت

تطورا، ظهرت أسماء جديدة لم تكن معروفة من قبل مثل:(أحمد حمدي ـ عبد العالي رزاقي ـ أزراج عمر ـ حمري بحري ـ أحلام مستغانمي...) معلنين القطيعة بينهم وبين الشعر العمودي، لكون وقوع هذا الجيل الجديد تحت تأثير الكتابات اليسارية التي اتخذت الانتصار( **للشعر الحر**) في الوطن العربي واجهة للمذهب السياسي.. ذات الطابع المعادي للتراث، ولا سيما ذات النزعة الماركسية..أصبحوا ينظرون إلى كل ما له علاقة بالتراث أو الدين، لا يتماشى مع متطلبات العصر، بحثًا عن البديل في الشعر العربي الوافد من المشرق العربي، يتمثل في شعر( بدر شاكر السياب ـ نزار قباني ـ عبد الوهاب البياتي ـ أدونيس محمود درويش ـ صلاح عبد الصبور..)، كما نلاحظ تأثرهم بالشعر العالمي المترجم، ولا سيما ذلك الشعر المتميز بنزعته الثورية النقدية مثل: **ناظم حكمت** (شاعر تركي ثوري)، **لورك**(إسباني ثائر)، **بابلو نيرودا**(شاعر شيلي ثائر على المظالم الاجتماعية) **بودلير**ـ **رامبو**(فرنسيان من التيار الرمزي) من الشعراء العرب وغير العرب، وهذا ما جعلهم يقعون في شرك التقليد والاقتباس للتجارب الإنسانية.

**خامسا/ الخصائص الفنية للتجربة الشعرية الجديدة:**

فإذا كانت عناية النقاد والشعراء التقليديين المحافظين تنصب على الجانب الموسيقي غالبًا، فإن عناية النقاد والشعراء المحدثين أصبحت منصبة على اللغة الشعرية التي المقصود منها المعجم الشعري ألفاظًا وتراكيبًا ـ فحسب ـ بل كل ما تحتوي عليه البنية التعبيرية من توظيف( الرمز ـ الأسطورة ـ الحوار الإحالات التاريخية والمرويات الشعبية التراثية...)، فأصبحت البنية التعبيرية محل عناية من الناقد الحديث والشاعر على حد السواء باعتبارها من أهم عناصر العمل الشعري، فمن خلالها يستطيع أن يحقق استقلاليته وحريته، وشخصيته، وتميزه.

**1/ استخدام اللغة البسيطة:** إن الشعراء الجزائريين ولا سيما في الاتجاه الجديد، كانوا أكثر وعيًا من سابقهم في تمثل هذه المكانة التي تحتلها اللغة في العمل الإبداعي، وحرصهم على استخدام لغة بسيطة وقد تجلى هذا الوعي بصفة خاصة في شعر الرواد مثل: أبي القاسم سعد الله، ومحمد الصالح باوية، وأبو القاسم خمار، ومحمد الأخضر السائحي. وعلى سبيل المثال يقول الشاعر( أبو القاسم سعدالله)، وهو يصف واقع الفلاح الجزائري تحت نير المعمر الفرنسي:

حتى م افترش الحصير

وأساكن الكوخ الحقير

و أساهر الحرمان والألم المرير

وتلوك جنبي الخشونة

لا الشمس ترحمني إذا انعدم المقيل

وأظل ملتصق اليدين

بالتربة المنتاج والشجر الوريق

لقد اتسمت لغته بالبساطة ورسمت شعره بنكهة تفوح منها رائحة واقع الفلاح الجزائري، يتمثل ذلك عنده في هذا المعجم الشعري البسيط الذي ينبض واقعية وسلاسة، وفي هذه المفردات والتراكيب التي يستخرجها الشاعر بحس فني رفيع من الحياة اليومية الجزائرية، دون أن ينزل إلى لغة عامية وسوقية. إن جيل الرواد كان على وعي بهذه الاستخدامات التي لا تبالغ في الانسياق والأخذ بالنظرية القائلة بأن لغة الشعر يجب أن تكون كلغة الحديث اليومية تأثرا بدعوة الشاعر الانجليزي **( توماس إليوت)**.

إن أخذ أغلبية الشعراء الجزائريين من**( جيل السبعينيات)** من القرن العشرين بنظرية(توماس إليوت) الأنجليزي وحرصهم الشديد على استخدام لغة بسيطة تصدر عن واقع المجتمع ومعجمه المتداول اليومي( اللغة العامية) جرّ أغلبهم إلى الوقوع في بعض السلبيات التي أثّرت في لغتهم الشعرية فجردتها من الجمالية الفنية. كما تظهر عندهم إلى جانب اللغة العامية **(المفردات اللغوية البذيئة)**، تحوم حول أجواء الرذيلة والعهر والانحراف..،وتتجرأ في الإفصاح عن الرغبات الجنسية المكبوتة، كما ينحط معجمهم الشعري عند البعض منهم إلى استخدام ألفاظ السباب والشتيمة في أسلوب يتجاوز كل حدود اللياقة والأدب مستخدمين تعابير تثير الاشمئزاز والنفور في نفس المتلقي. فتَرِد في قصائدهم أمثال هذه التعابير:(المضاجعة ـ فض البكارة ـ الجماع ـ البول ـ المخاط...)، إضافة إلى كلمات الهجاء والسب مثل:(الكلاب ـ الجرذان ـ الذباب ـ السلاحف ـ المومس ـ اللواط ـ اللقطاء- الخنزير- الخفاش ـ الصراصير..). إن بروز هذه الظاهرة في شعر فئة الشباب في مرحلة السبعينيات من القرن العشرين، تعود- فيما نحسب ـ إلى رؤية تتخذ الجرأة على اللغة مذهبًا فنيًا، وتذهب إلى أنه يجب على الشاعر المعاصر الواقعي أن يخترق جدار اللغة كما يخترق جدار الأفكار، لا يتردد في ذلك ولا يتحاشى، وهذا مذهب فني عرف عند بعض كبار الشعراء العرب أمثال:( نزار قباني ـ خليل حاوي ـ مظفر النواب ـ عبد الوهاب البياتي..) الذي يعدّ الأشهر في استخدام اللغة البذيئة وما من شك في أن شعراءنا الشباب قد تأثروا بذلك شأنهم في ذلك شأن غيرهم من الشعراء الشباب في الوطن العربي.

**2/ ظـاهــرة الـمحاكـاة والاقتبــاس:** إن ظاهرة التأثر والتأثير ظاهرة طبيعية في الآداب العالمية كلها فإن إعجاب الشباب وانبهارهم بابتكارات بعض الشعراء الرواد العرب تعبيرا وتصويرا، وإدمانهم على قراءة هذا الشعر جعلهم يقعون أسرى في أجواء القصائد المشهورة ذات الإبداع المميز.

**مثلا:** إن أجواء قصيدة( **أنشودة المطر)** لبدر شاكر السياب، بما فيها من ألفاظ وتراكيب:( العينين النخيل ـ المطر ـ الأطفال ـ البرق ـ الأضواء ـ القمر ـ النهر ـ النجوم ـ الضباب ـ العصافير ـ الغيوم الظلام ـ الموت ـ الضياع..) هي الألفاظ نفسها التي يكاد القاموس الشعري لهؤلاء الشباب ينحصر فيها، حيث يقول الشاعر(**أحمد حمدي)** في قصيدته( نخلة الميلاد):

و تقمرت فتمتمت، وعيناك نخيل

آه يا ليلي، و ياعيني عليك

عندما أحببت فيك الحب

كان المطر الغامر

يسقي نخلة الميلاد والميعاد

كان المطر..

أما( نزار قباني) فقد ترك بمعجمه الشعري بصمات واضحة في قصائد الشعراء الشباب، قلده بعضهم في تراكيبه وصوره إلى حد الاقتباس. من ذلك قصيدة( سليمان جوادي) التي عنوانها(**أغنية لم يلحنها الشيخ إمام)** يقول فيها: نحن لا نطلب منكم أيها السادة تحليق الشوارب

نحن لا نطلب منكم أيها السادة إلغاء الضرائب

تلك أشياء روتها شهرزاد

وأمور قال عنها سندباد

نحن لا نطلب منكم أن تعيدوها إلينا

نحن نرجو أن تعيدوا سورة الناس إلى القرآن نورا

أن تعيدوا لصلاح الدين سيفًا عربيًا ...

**3/ الـرمـــــز:** يعد الرمز من أبرز الظواهر الفنية التي تعتمدها التجربة الشعرية في الاتجاه**(الجديد الحر)** بصفة خاصة،وقد أدرك الشاعر المعاصر أكثر من سابقيه ما في**(الرمـز)** من امتلاء، وخصوبة وما فيه من طاقة في أن يفتح أمام الشاعر والقارئ معًا، فيضًا من الإيحاءات التي لا تنتهي إذا أحسن الشاعر استعماله، فهو ماثل في**( الخرافات والأساطير والتراث، والحكايات وكل المأثورات الشعبية..).** فنجد شعراء **( مرحلة الثورة التحريرية)** مثلا: يرمزون إلى الشعب الجزائري المجاهد: (بالنسر ـ العملاق ـ المارد..) كما يرمزون إلى الاستعمار( بالغول ـ الأخطبوط ـ التمساح ـ الفئران ـ العنكبوت ـ الغربان الليل ـ الظلام ـ الخفاش..)، وكل ما من شأنه أن يوحي بالمكر والخداع، والبشاعة والكراهية، بينما نجدهم في الوقت ذاته يرمزون إلى الحرية والانطلاق والمستقبل الواعد:( بالقمر- النور- الفجر الشعاع...) وما إليها من الألفاظ الموحية بالأمل والبهجة.

أما في شعر( **شباب الاستقلال)**، فجاءت الرموز المستخدمة من طرفهم متشابهة الدلالة، إذْ هي تعبير عن مشاعر: (الحزن ـ القلق ـ الضياع ـ الضيق ـ الملل ـ المنفى ـ الاغتراب ـ محطات الوداع ـ الهجرة الشرطي ـ الدركي ـ الجمارك ـ عقارب الساعة..)، وتقابل هذه الرموز رموز أخرى تدل على التطلع إلى الحرية والانطلاق وتعبر عن الرفض والغضب، والتمرد وهي دلالات نفسية.

**4/ تـوظيـف الأسـطـورة** : من أبرز الظواهر الفنية التي تلفت النظر في تجربة الشعر الجديد الإكثار من استخدام( الأسطورة) أداة للتعبير، إلا أن الاستخدام ارتبط في بعض الأحيان ـ بظاهرة الغموض التي تحجب في بعض الحالات ـ عملية تذوق الشعر وفهمه عند المتلقين، ومن ناحية ثانية تكشف علاقة الشعر بالتراث العربي والإنساني العالمي. وقد اهتمت مدارس النقد بالأساطير، وقررت بأنه**( لابد من أن يرتبط الشعر بالأسطورة فهي الرمز الذي يجسد البشرية).**

وقد برز( **المنهج الأسطوري)** في الشعر الجزائري المعاصر، ولا سيما في**( السبعينيات)** من القرن العشرين على يد الكثير من الشعراء الشباب أمثال:(عبد العالي رزاقي، أحمد حمدي، أحلام مستغانمي..)، ويبدو أن أسطورة **(السندباد البحري)** قد استهوت العديد من الشعراء، إذْ وردت في أشعارهم بكثرة، ولعل شخصية(السندباد) بطابعها المعروف بالاغتراب الدائم، والتجوال المستمر، وحب المغامرة، والبحث عن الجديد، ورفض الواقع الراكد الثابت.. ولهذا وجدوا في هذه الشخصية ما يشبه نزوعهم عادة إلى كل ما هو جديد، وتطلعهم الدائم إلى الكشف والمغامرة والتمرد والرفض.. فإن حب الشاعر عبد العالي رزاقي**( للجزائر)** حَوَّله**( سندبادا)** دائم التجوال والسفر، باحثًا في ضنى أبدي عن حبيبته الجزائر، هذه الجزائر التي يريدها دومًا تساير العصر ولا تلتفت إلى الماضي، يقول :

لا ينبغي أن تهتفي باسمـي

فقلبي لم يعد يرتاح للماضي

تعبت من الحكايات القديمة

كان حبك رحلتي الأولى

وكنت السندباد

ونجد الشاعر عثمان لوصيف يجعل من نفسه( سندبادا)، مفضلا رحلة الغربة والضياع والموت على العودة والإتيان بالجديد، إذ يقول:

أنا سندباد الشمس عمري عجائب

وفي كل يوم مرفئي بجزيره

وخضت مجاهيل البحار ولم أزل

أموت و أحيا في جهنم رغبتي

إن شيوع المنهج الأسطوري في المتن الشعري الجزائري المعاصر، أعطته دفعة قوية نحو الابتكار والخلق والتجديد في محاولة تمردية على ما سبق من مضامين وأشكال، والبحث عن أشكال ومضامين جديدة، تتماشى وروح العصر.

**6/ تـوظيــف الـتـــراث:** إن استدعاء الشاعر للتراث واستثماره كرموز، وكيفية توظيفه له، ويبقى على الشاعر انتقاء الرموز والتوليف بينها وبين العناصر الأخرى في النص الشعري، وتفجير ما به من طاقات دلالية إيحائية.. وما استهوى الشعراء الجزائريين المعاصرين من التراث المقدس الديني(**القرآن الكريم**)، وبالأخص(**شخصيات الأنبياء**)عليهم السلام كرموز في إبداعاتهم الشعرية، فشخصية( **الأنبياء**) عليهم السلام، غنية وثرية بدلالات الفداء والاستبسال والمثالية، كما أنها تحمل قدرًا كبيرًا من التراجيديا والدراميا، فهي مثال:( للعطاء والبذل.. وحمل الرسالة)، وهي في نفس الوقت نموذجًا لتحمل(المكابدة والعذاب والمعاناة..) ورمز للاغتراب الفكري والوجداني، ودليل على نقصان الحياة البشرية.. وعلى سبيل المثال نجد الشاعر(**عبد العالي رزاقي**) استخدم العديد من قصص الأنبياء، فقد رمز من خلال قصة سيدنا **"يوسف"** عليه السلام، وتفسيره لحلم السجينين إلى المصير المؤلم الذي ينتظر كل مناضل عربي في سجون الحكام الطغاة:

... وهذه الخطوط على الكف

محتمل أن تصير على القلب أغنية

باسم **يوسف**، وهو يفسر حلم **سجينين** عاشَا معًا

واحد منهما سوف يغتاله الموت في الليلة المقبلة

وآخر يفرج عنه في السنة القادمة.

إن اللغة الشعرية في( التجربة الشعرية الجديدة) مرت بمرحلتين : مرحلة **(الثورة التحريرية)**، التي تميزت بالأصالة والاقتراب من الواقع الجزائري على استخدام أقل لفنيات البنية التعبيرية الجديدة، ومرحلة **(الاستقلال)** التي انتشر فيها(شعر الشباب)، وقد تميزت لغتهم بالجرأة في استخدام فنيات القصيدة الجديدة. وبهذه الجرأة والتحول، استطاعوا أن يوفروا لأعمالهم الشعرية الوحدة الموضوعية والعضوية، بانتهاج أساليب تعتمد تقنيات القصيدة الجديدة مثل التركيز على اللغة الشعرية الإيحائية، من خلال شحن العبارة بالعاطفة الذاتية والرمز والأسطورة والحوار والإيحالات التاريخية والمرويات الشعبية،والتراث والاستفادة من الثقافات العالمية شعرية كانت أم نقدية. والجدير بالملاحظة هو اقتصار الشعراء الجزائريين المعاصرين(الشباب) على استخدام الرموز العربية والأجنبية، واعتمادهم الكلي ـ غالبا ـ على ما يجدونه في القصيدة العربية المعاصرة من رموز، فهم لم يكلفوا أنفسهم عناء البحث عن رموز جديدة يستقونها من**(البيئة المحلية الجزائرية)**، تراثًا وتاريخًا، مع أن التراث والتاريخ الجزائريين مليئان بما يمكن أن يثري تجاربهم الشعرية بالرموز والأساطير، مما يضفي على أعمالهم طابعًا يتسم بالأصالة والتفرد.